دور الدرس العقدي المعاصر في مواجهة الإلحاد

The Role Of The Contemporary Nodal Lesson In Facing Atheism

محمد أرارو * **كلية أصول الدين تطوان**

جامعة عبد المالك السعدي، المغرب.

mohamed.said.ararou@gmail.com

تاريخ الاستلام: 07 / 01/ 2018   تاريخ القبــول: 14 /01/ 2018

ملخّص

جاء هذا البحث كمحاولة لبعث الروح في الدرس العقدي المعاصر كي يكون في مستوى التطلعات، ويحل الكثير من الإشكالات، ويعالج قضايا العصر ويساير الواقع. وذلك لأن الإشكالات العقدية المعاصرة أضحت تؤثر سلبا على عقائد المسلمين خصوصا في أوساط الشباب، ومن أخطر ما تواجهه عقيدة الإيمان في واقعنا الحاضر **مشكلة الإلحاد**؛ التي تشكل أكبر تحد للدرس العقدي حالا ومستقبلا.

إن الباحثين في مجال العقيدة والفكر لا محيد لهم اليوم عن معرفة أسباب الإلحاد بشكل مفصل ودقيق، كي يقوموا بدراستها دراسة علمية موضوعية يتسنى لهم من خلالها الاطلاع على دواعي انتشارها الرهيب، مع إيجاد حلول علاجية ناجعة تؤتي كلها وتظهر ثمرتها سواء في مجتمعنا المسلم أو في أوساط الجاليات المسلمة المقيمة في الغرب محضن وموطن الإلحاد المعاصر.

وفي هذا البحث حاولت أن أضع تصورا عاما لظاهرة الإلحاد، مع إبراز جملة من الأسباب التي أدت إلى انتشاره بهذا الشكل المفزع، كما اقترحت جملة من المقترحات قصد تجديد الدرس العقدي المعاصر وتطوير خطابه، وتطعيمه بما استجد من فنون علمية جديدة، وإضافة مباحث جديدة لعلم الكلام، مثل: "مبحث الكونيات" و"القواعد الاعتقادية"...، مع تطوير مبحث الطبيعيات ودراسته وفقا لما استجد من علوم فيزيائية، - كل ذلك من أجل أن يمتلك الدرس العقدي- الوسائل الأساسية واللازمة، لمواجهة الشبهات الحادثة، وحل الإشكالات المعاصرة، والإجابة عن "النوازل العقدية المعاصرة"، لذا كان من أهم مقترحات البحث أن يتم إحداث فرع جديد لعلم الكلام يهتم بـ: (**رد شبهات الماديين والإلحاديين حول العقيدة الإسلامية**).

الكلمات المفتاحية: الدرس، العقدي، المعاصر، مواجهة الإلحاد.

* البريد الإلكتروني للمرسل: mohamed.said.ararou@gmail.com

Abstract

This research is meant as an effort to bring back the spirit in the contemporary teaching of faith until it is nurtured towards a deductive level, solving multiple problems, and solving contemporary issues and suitable with the time we're living in. As it is concerned that the contemporary faith challenges are threatening the muslim's faith especially between the youth, and the most dangerous threat nowadays the atheism as its threatening the teachings of faith now and in the future.

Researchers in the field of creed and faith need to understand the reason why the atheism is spreading precisely, to make sure that they can make an academical research which allow them to know the reason why the idea spreads, and in the same time finding the cure which will benefit the muslims community within the western society.

In this research, I tried to present the general picture of atheism, and explained the causes that helped it spread, as well as giving suggestions to develop the new methods in contemporary faith studies, and upgrading it with new disciplines of knowledge and some new topics in theology such as natural philosophy and thelogical legal maxims while asserting improvement in natural studies compatible with physics, solving the contemporary problems by answering the new occurrence and questions in faith, so that the most important focus of the research is to: "Refuting the misconceptions of the materialists and the atheists about the Islamic faith".

Keywords: Study, faith, contemporary, facing atheism.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين، وبعد: فإن الدرس العقدي المعاصر أصبح في حاجة ماسة إلى بعث روح جديدة فيه تلائم قضايا العصر وتسايرها، لأن الإشكالات العقدية المعاصرة أضحت تؤثر سلبا على عقائد المسلمين خصوصا في أوساط الشباب، ومن أخطر ما تواجهه عقيدة الإيمان في واقعنا الحاضر **قضية الإلحاد**؛ التي تشكل أكبر تحد للدرس العقدي حالا ومستقبلا.

إن المتخصصين في البحث العقدي والفكري لا محيد لهم اليوم من معرفة أسباب الإلحاد بشكل مفصل ودقيق، كي يقوموا بدراستها دراسة علمية موضوعية ليتسنى لهم من خلالها الاطلاع على دواعي انتشاره الرهيب، مع إيجاد حلول علاجية ناجعة تؤتي أكلها وتظهر ثمرتها سواء في مجتمعنا المسلم أو في أوساط الجاليات المسلمة المقيمة في الغرب محضن الإلحاد وموطنه.

وفي هذا البحث القصير سأحاول معالجة هذا الموضوع الشائك وفق التساؤلات الآتية؟

- ما الأسباب الموضوعية العلمية والواقعية التي أسهمت في انتشار ظاهرة الإلحاد؟
- هل الدرس العقدي المعاصر يمتلك الوسائل الكافية لمواجهة هذه الظاهرة؟
- ما أنجع الطرق العلاجية لمواجهة ظاهرة الإلحاد؟

المبحث الأول – مفهوم الإلحاد وأسباب انتشاره

المطلب الأول- مدخل تمهيدي للتعريف بالمفاهيم ذات الصلة بالموضوع:

1. مفهوم الإلحاد في اللغة:

إن مفهوم الإلحاد في اللغة العربية تجتذبه عدة معان، منها: الميل عن القصد. ولحد علي في شهادته يلحد لحدا: أثم. ولحد إليه بلسانه: مال. ويلحدون إليه يميلون ويعترضون. والإلحاد في بيت الله الشك في الله، وقيل: كل ظالم فيه ملحد. وأصل الإلحاد: الميل والعدول عن الشيء. وألحد في الحرم: ترك القصد فيما أمر به ومال إلى الظلم. والملتحد: الملجأ لأن اللاجئ يميل إليه(1). وألحد: مال، وعدل، وماري، وجادل، وأشرك بالله، أو ظلم، أو احتكر الطعام، ولاحد فلانا: اعوج كل منهما على صاحبه(2).

ومن خلال ما سبق يتحصل لنا أن معاني الإلحاد من حيث اللغة ترجع إلى الميل عن الشيء والعدول عنه..

2. مفهوم الإلحاد في الاصطلاح:

إن المراد بالإلحاد كل فكر يتعلق بإنكار وجود خالق هذا الكون سبحانه وتعالى، سواء أكان عند المتقدمين من الدهرية، أو عند من جاء بعدهم من الشيوعيين والماركسيين، بمعنى أن وصف الإلحاد يشمل كل من لم يؤمن بالله تعالى، ويزعم أن الكون وجد بذاته في الأزل نتيجة تفاعلات جاءت عن طريق الصدفة ودون تحديد وقت لها، واعتقاد أن ما وصل إليه الإنسان منذ أن وُجد وعلى امتداد التاريخ من أحوال في كل شئونه إنما وُجِد عن طريق التطور، لا أن هناك قوة إلهية تدبره وتتصرف فيه(3).

ويقول الطاهر ابن عاشور إن: الإلحاد الميل عن وسط الشيء إلى جانبه، وإلى هذا المعنى ترجع مشتقاته كلها، ولما كانوسط الشيء يشبه به الحق والصواب، استتبع ذلك تشبيه العدول عن الحق إلى الباطل بالإلحاد، فأطلق الإلحاد على الكفر والإفساد، والأكثر أن يكون ذلك عن تعمد للإفساد، ويقال: لحد وألحد، والأشهر ألحد(4).

3. مفهوم الإلحاد في القرآن الكريم:

قد جاءت كلملة الإلحاد بمشتقاتها في عدة سياقات من القرآن الكريم منها، قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: 180). يقول الطاهر ابن عاشور رحمه الله: والمراد من ترك الذين يلحدون في أسمائه الإمساك عن الاسترسال في محاجتهم لظهور أنهم غير قاصدين معرفة الحق، أو ترك الإصغاء لكلامهم لئلا يفتنوا عامة المؤمنين بشبهاتهم، أي اتركوهم ولا تغلبوا أنفسكم في مجادلتهم، فإني سأجزيهم.

ومعنى الإلحاد في أسماء الله جعلها مظهرا من مظاهر الكفر، وذلك بإنكار تسميته تعالى بالأسماء الدالة على صفات ثابتة له، وهو الأحق بكمال مدلولها فإنهم أنكروا الرحمان، كما تقدم، وجعلوا تسميته به في القرآن وسيلة للتشنيع، ولمز النبيء عليه الصلاة والسلام بأنه عدد الآلهة، ولا أعظم من هذا البهتان والجور في الجدال، فحق بأن يسمى إلحادا لأنه عدول عن الحق بقصد المكابرة والحسد(5).

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ (النحل: 103). ومعنى يلحدون يميلون عن الحق لأن ذلك اختلاق معاذير، فهم يتركون الحق القويم من أنه كلام منزل من الله إلى أن يقولوا يعلمه بشر، فذلك ميل عن الحق وهو إلحاد(6).

ومن الآيات الواردة في هذا المعنى أيضا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِى آمِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ٱعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (فصلت: 40). يقول الطاهر ابن عاشور: الإلحاد حقيقته: الميل عن الاستقامة، والآيات تشمل الدلائل الكونية المتقدمة في قوله: ﴿قل أإنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض

في يومين﴾ (فصلت: 9). وقوله: ﴿ومن آياته الليل والنهار﴾ (فصلت:37). إلخ. وتشمل الآياتُ الآياتِ القولية المتقدمة في قوله: ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾ (فصلت: 26). فالإلحاد في الآيات مستعار للعدول والانصراف عن دلالة الآيات الكونية على ما دلت عليه. والإلحاد في الآيات القولية مستعار للعدول عن سماعها وللطعن في صحتها وصرف الناس عن سماعها(7).

4. مفهوم ذو صلة بمفهوم الإلحاد:

ونلفت نظر القارئ الكريم إلى أن هناك مفهوما له صلة وثيقة بمفهوم الإلحاد وهو مفهوم الدهرية: تعد "الدهرية" أصل كل مذاهب الإلحاد والمادية التى عرفتها البشرية، فهى مذهب كل من اعتقد فى قدم الزمان والمادة والكون، وأنكر الألوهية والخلق والعناية والبعث والحساب. ويتوازى مع إنكار البعث والحساب عقيدة (تناسخ الأرواح) الذى يعتقد أصحابها بأن أرواح البشر تنتقل من جسد كائن حى (إنسان أو حيوان) إلى جسد كائن حى آخر بعد موت الأول، فتشقى هذه الروح أو تسعد حسب ما اكتسبه الإنسان الذي كانت حاله فى جسده إن خيرا فخير وإن شراً فشر. وقد لخص القرآن الكريم عقيدة الدهريين فى آية كريمة، فى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (الجاثية: 24). أما الخلق والتدبير للكون فينسبونه للكواكب. ويمكن اعتبار الفلسفة الوضعية الحديثة وكذلك الفلسفة الماركسية أحدث صور الدهرية القديمة(8).

يقول محمد عمارة: "وهؤلاء الدهرية المنكرون للألوهية هم أقرب الكافرين من الملاحدة المعاصرين، كما يخبرنا القرآن الكريم عما سيدعيه بعض الدهريين بعد أربعة عشر قرنا عن خلق الكون والإنسان من عدم، فيقول الحق عز وجل: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (الطور: 35)"(9).

المطلب الثاني– ما الأسباب العلمية والواقعية التي أسهمت في انتشار ظاهرة الإلحاد؟

غير خاف على المتأمل في الواقع المعاصر من الدارسين والباحثين خصوصا أصحاب التخصص في المجال العقدي، إن أعوص المشكلات التي تواجه الدرس العقدي المعاصر، هي: مشكلة الإلحاد؛ بسبب الإقبال المتزايد عليه من طرف الشباب، والانتشار المهول له على الساحة، إذ لم يقتصر الوضع على الدول الغربية، بل الغريب في الأمر والمؤسف غاية الأسف أن نراه ينتشر في عالمنا العربي والإسلامي انتشار النار في الهشيم، خصوصا في أوساط الشباب الجامعي الدارس في عدة تخصصات كالفلسفة وعلم الاجتماع...

ترى ما هي الأسباب الحقيقية وراء هذا الانتشار؟

وما الدواعي الموضوعية التي سهلت الطريق إلى الإلحاد؟

مما لا شك فيه أن الأسباب عديدة والدواعي كثيرة يتعذر حصرها والإلمام بها في مثل هذه الورقات المختصرة، إلا أنه يمكن إرجاعها في المجمل إلى أسباب فلسفية مادية اتكأ عليها كثير من الفلاسفة والمثقفين، وأسباب وهمية التجأ إليها الضعفاء المنبهرون بالغير، قادهم إليها ضعف تكوينهم المعرفي وقلة بضاعتهم في المجال الديني... وفيما يلي سأذكر جملة من تلك الأسباب:

السبب الأول– توهُّم التعارض بين العقل والنقل

تعد مشكلة العقل والنقل من أهم المشكلات العلمية التي شغلت الفكر الإسلامية ردحا من الزمن، نتج عن الجدال حولها ظهور فرق وآراء، فمن رحم هذا النقاش خرجت أطروحة المعتزلة العقلية المحضة القائلة بتحكيم العقل وأنه يحسن ويقبح بطبعه، وقد غلت في استعمال العقل مما أدى بأصحابها إلى إنكار بعض الصفات الإلهية. وفي المقابل جاءت أطروحة أخرى غالت في استعمال ظاهر الوحي ومنع أي دور للعقل فيما يتعلق بالصفات الإلهية حتى وصل بها الأمر إلى التشبيه والتجسيم. وتوسطت أطروحة ثالثة بينهما حاولت إيجاد التوازن بين العقل والنقل وهي الأطروحة الأشعرية، كما شكل ما سمي بقانون الفخر الرازي رحمه الله ردود أفعال متباينة بين مدرك لحقيقة الأمر ومجرد منكر دون علم، ومؤيد ومعارض، وفي هذا السياق جاء المشروع التيمي الواسع الذي حاول إعطاء الحل النهائي لهذا النزاع توصل من خلالها لنتيجة مفادها أن صحيح النقل لا يعارض صريح العقل، وسمى موسوعته بـ"درء التعارض بين العقل والنقل" أو "موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول".

وإذا تقرر هذا فإنه يمكن القول بأن الحقيقة التي يجهلها أو يتجاهلها المتوهمون لهذا التعارض بين الوحي الإلهي: (الكتاب والسنة)، والعقل البشري؛ هي عدم وجود أي تعارض حقيقي بينهما إلا في مخيلة هؤلاء! فالله عز وجل كرم الإنسان بالعقل ليدرك الحقائق ويميز به بين الأشياء، وأنزل الشرع لينير طريقه ويهدي عقله كي لا يضل عن طريق الجادة والصواب، "فبالشرع يهتدي العقل، وبالعقل يدرَك الشرع"؛ فهما توأمان لا ينفصلان، وقرينان متوازنان لا يصطدمان.

والذي يؤكد هذه الحقيقة بجلاء هو شيوع الاستدلال العقلي في القرآن الكريم، فهناك ما يقرب من خمسين آية تتحدث عن "العقل والتفكير والنظر..."، وفي هذا السياق يقول محمد عمارة: "... ومع شهرة المقابلة – بل والتناقض– بين العقل والنقل في التراث الغربي، فإن المقابل للعقل – في تراثنا العربي والإسلامي– هو الجنون! وعلى حين كان الضيق الغربي بسماحة الأفكار، وبالفروض والشكوك المنهجية قيودا وأغلالا دفعت قطاعات من العقل الفلسفي الغربي إلى الزندقة والإلحاد...، كانت الأبواب الإسلامية مشرعة أمام العقل كي ينظر في الخلق والواقع والمسيرة والمصير دونما قيود.. حتى قال بعض علماء الإسلام: (إن أول شرط للمعرفة هو الشك).. ولقد تحول هذا الشك المنهجي[10] – في التراث الإسلامي– إلى (علم) من العلوم التي يجب تعلمها، لأنه هو الطريق إلى تحصيل اليقين الذي تطمئن به القلوب..."[11].

وقد عبر الجاحظ عن ذلك لقارئه فقال: "فاعرف مواضع الشّكّ، وحالاتها الموجبة له، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له، وتعلم الشّكّ في المشكوك فيه تعلّما. فلو لم يكن في ذلك إلّا تعرّف التوقّف ثمّ التثبّت، لقد كان

ذلك ممّا يحتاج إليه.. ولم يكن يقين قط حتى كان قبله شكّ، ولم ينتقل أحد عن اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتّى يكون بينهما حال شكّ"[12].

يضيف محمد عمارة: أنه بهذا الأفق المتميز —بل والفريد– تم استيعاب العقلانية بكل تجلياتها في أحضان الإيمان الإسلامي، فانعدمت — أو كادت– القيود والضرورات الملجئة إلى الإلحاد[13].

السبب الثاني– ضلالات الفلسفة الوضعية المادية (اللادينية)

تلك الفلسفة التي تأسست عليها الحضارة الأروبية الحديثة، وانبهر بها الناس لأنها تحررهم من كل قيود التشريع وأعباء التكليف، وتعتمد على الماديات والحسيات ولا تعطي أي اعتبار للغيبيات والمتفزيقيات، بدعوة أنها أمور وراء العقل ومخالفة للتطور العلمي الذي شهده العصر الحديث، وما وصل إليه من عولمة تبهر العقول. وقد تنبه لهذا الخطر المحذق كثير من الباحثين وأصحاب البعثات الإسلامية إلى أوروبا، فعلى الرغم من انبهارهم بـ "جنة بارس" كما وسمها البعض، إلا أن عددا منهم كان يحمل هم المسئولية ويتحدث عن خطورة الوضع ومن أولئك رفاعة الطهطاوي رحمه الله فقد كان ينتقد ويرفض الفلسفة الوضعية، التي تعتمد على المحسوس وعلى العقل دون الشرع، ويقول: "إن لهم في الفلسفة حشوات ضلالية مخالفة لكل الكتب السماوية، وإن تحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشارع، ولا عبرة بالنفوس القاصرة، الذين حكّموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التي ركنوا إليها تحسينا وتقبيحا، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود بتعدي الحدود، فينبغي تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع لا بطرق العقول المجردة" [14].

وينتقد نقدا لاذعا ما أثمرته الفلسفة الوضعية من العلمانية التي همشت الدين والتي جعلت أهل هذه البلاد إنما له من دين النصرانية الاسم فقط، حيث لا يتبع دينه، ولا غيرة له عليه، بل هو من الفرق المحسنة والمقبحة بالعقل، أو فرقة من الإباحيين الذين يقولون: إن كل عمل يأذن في العقل صواب، ولذلك فهو لا يصدق بشيء مما في كتب أهل الكتاب لخروجه عن الأمور الطبيعية. ثم يصوغ الطهطاوي هذه المفارقة التي ميزت الحضارة الأوربية، تقدم في العلوم الطبيعية وضلالات في الفلسفة وتهميش للدين، يصوغها شعرا يقول فيه: (أيوجد مثل باريـس ديار ** شموس العلم فيها لا تغيب. – وليل الكفر ليس له صباح ** أما هذا وحقكـم عـجيب). وبعد ذلك يقدم البديل الإسلامي الذي يجمع بين العقل والشرع، فيقول: "إن تحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشرع، والتكاليف الشرعية والسياسية التي عليها نظام العالم مؤسسة على التكاليف العفلية الصحيحة الخالية عن الموانع والشبهات، لأن الشريعة والسياسة مبنيتان على الحكمة المعقولة لنا أو التعبدية التي يعلم حكمتها المولى سبحانه، وليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه، والذي يرشد إلى تزكية النفس هو سياسة الشرع، ومرجعها الكتاب العزيز، الجامع لأنواع المطلوب من المعقول والمنقول، مع ما اشتمل عليه من بيان السياسات المحتاج إليها في نظام أحوال الخلق" [15].

ومما يؤكد خطورة هذه الفلسفة وأثرها السلبي في نشر الإلحاد، ما ذكر الدكتور أنور الجندي بقوله: "فقد مضت هذه الفلسفة المادية تشق طريقا ضد التيار وضد الفطرة وضد طبائع الأشياء لتثبت أباطيل الإلحاد والإباحة وتنكر عالم الغيب، وتعارض الميتافيزيقا. والفلسفة ليست علما ولكنها فروض يفترضها بعض الباحثين ثم تجيء فروض أخرى مضادة

وهكذا. لا شيء يثبت أبدا للبحث، لأنه يفترض فروضه من خلال نظرة ناقصة أصلا: هي النظرة إلى الإنسان على أنه جسد ومادة فحسب. وعلى أن الكون كله مادة بينما تجيء الحقيقة التي تكمل العقل والمادة في أن الحياة والإنسان والكون جانبان متكاملان: مادة وروح، وعقل وقلب، ودنيا وآخرة، والإنسان نفسه ليس مادة خالصة ولذلك فإن تطبيق قوانين المادة عليه تكون ناقصة النتائج، والإنسان نفسه ليس حيوانا ولكنه يمتاز عنها ويختلف بأن له جانبا آخر، ولذلك فإن قوانين الحيوان وتجارب الحشرات والبهائم لا تصلح للتطبيق عليه. فإذا استشرى القول بأن الإنسان سيد الكون أو أنه حيوان، وإذا ساد القول بإعلاء العقل أو العلم، كان ذلك من أكبر أخطار العقيدة، وانتقاصا لمفهوم التوحيد الخالص الذي يقوم على أساس قدرة الله القائم بالحق، وهذا الكون كله من جماد وحيوان ونبات وإنسان من صنعه، وكذلك العقل والروح والمادة جميعا"[16].

السبب الثالث– توهم التعارض بين الدين والعلم

إن دعوى التقاطع بين الدين والعلم، أو بين الوحي الإلهي والعلم التجريبي، يعتبر من المجالات الهامة التي ينبغي الاهتمام بها وإعطاؤها قدرا كافيا من البحث والنظر، على اعتبار أن هذه الإشكالية يتخذها المغرضون بابا للتضليل، ووسيلة لصرفهم عن دينهم واللج بهم في ظلمات الإلحاد، بادعاءات باطلة مفادها أن الدين لم يبق صالحا للعصر وأنه يخالف البديهيات والحقائق المسلمة التي توصل إليها العلم الحديث، وعليه فإن التدين سبيل للتخلف وضد أي تقدم وتحضر.

وهذا لعمري أمر عجاب إذ كيف يكون الدين مخالفا للعلم، وأول آية نزلت من القرآن الكريم الذي يعتبر دستور هذا الدين، فيها الأمر بالقراءة قال الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: 1-4). إن المتأمل في هذه الآيات يجدها تلفت نظر الإنسان وعقله إلى التفكر والتأمل في الكون المنظور قبل قراءة الكتاب المسطور، فهي تتحدث بشكل صريح عن قراءة ما خلق الله من أجل الوصول إلى الإيمان بما أنزله، قبل أكثر من أربعة عشر قرنا –مئات السنين– من وجود هذا العلم التجريبي المادي الذي يدعي أهله أن الدين يخالفه، وقبل وجود مختبراته ومراكزه وجامعاته وتخصصاته... – قبل كل هذا – جاء القرآن يتحدث عن خلق الإنسان من علق، وصور أطواره التي يمر منها في تكوين خلقه بشكل عجيب اعتبرها علم الطب الحديث حقائق مسلمة، قرر القرآن الكريم أن الإنسان يكون علقة فنطفة فمضغة فتكوين صلبه وعظامه فكساؤه باللحم فإخراجه للوجود. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المومنون: 12-14)

كما يتحدث القرآن الكريم عن الكواكب والنجوم والشمس والقمر بدقة متناهية قبل وجود وكالات "ناسا" أو غيرها من الوكالات الفضائية والمراكز الفلكية، أيُّ تناقض يمكن أن يتصور بين دين يدعو إلى العلم، وعلم تجريبي أشار القرآن

الكريم إلى كثير من حقائقه!؟ لا يوجد إلا في مخيلة المتوهمين الذين يجهلون أو يتجاهلون الحقيقة، وأولئك الذين يتبعون أول ناعق!

إن علماء الإسلام منذ قديم الدهر كانوا أهل علم وإبداع ونظر واختراع، وعلى يديهم وفي حلقاتهم درست فنون، واكتشفت علوم، وتُوصل إلى حقائق لا ينكرها إلا الجاحد، وإليك أمثلة كثيرة؛ فمن الخوارزمي في علم الجبر والرياضيات، والحسن بن الهيثم رائد البصريات، وابن النفيس مكتشف الدورة الدموية، إلى ابن رشد الفيلسوف، وابن بطوطة الرحّالة في علم الجغرافيا، وغيرهم الكثير...

السبب الرابع– الغزو الفكري الغربي والحملات التنصيرية

إن العديد من الدول والبلدان العربية والإسلامية كانت هدفا للحملات العسكرية الغربية وتعرضت للاحتلال، وعلى الرغم من خروج المحتل منها إلا أنه ترك إرثا ثقيلاً وأعظمَ احتلالٍ ألا وهو الاحتلال الفكري، وقد أصبحت هذه الدول بعد ما سمي بالاستقلال مصرحا للحملات التنصيرية والغزو الفكري وزرع الشبهات الباطلة في أوساط الناشئة...، "وضِمْن الغزو الفكري الغربي وفَد التنصيرُ إلى بلادنا في ركاب الغزوة الغربية الحديثة...، جاء لاختراق الإسلام طامعا في تنصير كل المسلمين...، وطي صفحة الإسلام من الوجود! ولقد توسل المنصرون إلى ذلك بوسائل كثيرة منها: عند العجز عن تنصير المسلم تشكيكه في إسلامه ودفعه إلى الزندقة والإلحاد، ولقد حاكوا في تعصبهم ضد الإسلام، وتفضيلهم إلحاد المسلم بالدين الذي يصدق بكل الكتب وبجميع النبوات والرسالات، حاكوا يهود المدينة المنورة على عهد النبوة، الذين شهدوا للوثنية القرشية ضد التوحيد الإسلامي، فقالوا لمشركي مكة: "إن دينكم خير من دين محمد وأنتم أولى بالحق منه"، والذين أشار إليهم القرآن الكريم فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ (النساء: 51).

هكذا وقف المنصرون ليعلنوا بلسان كبيرهم (صموئيل زويمر1867–1952م) أن تشكيك المسلم في دينه هو الموقف الأولى إذا لم يكن الانتقال به من الإسلام إلى النصرانية![17]

ومما سهل الاستجابة لهذه الحملات ويسر عملية استيراد تلك الأفكار والشبهات، ضعف التكوين العلمي في أوساط الشباب خصوصا ما يرتبط منه بالجانب الشرعي وبالأخص المجال العقدي، وقد كان لتسرب المناهج اليسارية والشيوعية والماركسية دور كبير في استغلال جهل الشباب وضعف تكوينهم ونشر هذه الأفكار والشبهات.

إلى غير ذلك من الأسباب المتعددة كمواقع النيت وصفحات التواصل الاجتماعي فقد أصبح العالم معها عبارة عن قرية صغيرة، وأضحت في متناول الجميع، وأقبل عليها الشباب إقبالا أعمى، وقد استغل الفرصة أصحاب الأفكار الهدامة وقاموا بنشرها في أوساط هؤلاء الشباب، ومما يزيد الطين بلا أن من هؤلاء الشباب المتحمس ممن لا يمتلك الوسائل الكافية ولا القدرة العلمية، يدخل في مناقشة هؤلاء فيقع في شباكهم بما يلقونه من شبهات وتدليسات لا يستطيع مجاراتها فيستسلم لها.

لذا يمكن اعتبار ضعف التكوين الشرعي بشكل عام والفكري العقدي بشكل خاص، من أهم أسباب نشر الفكر الإلحادي، لأن ضعيف التكوين الذي لا يملك سلاح المواجهة يسهل الإيقاع به والتشويش عليه وتشكيكه في دينه بكل يسر وسهولة.

إن الأسباب عديدة والدواعي كثيرة يتطلب الحديث عنها بالتفصيل؛ بحثا خاصا من أجل الإحاطة بها والتوسع في عرضها، لكن ما لا يمكن كله لا يترك جله أو بعضه، ولعل ما ذكر يعد أهمها وأشدها خطورة وتأثيرا وإسهاما في نشر الفكر الإلحادي بهذا الشكل المفزع.

المبحث الثاني– الدرس العقدي المعاصر في مواجهة الإلحاد

سيتم الحديث خلال هذا المبحث على مرتكزين مهمين غاية الأهمية، ويعتبران نتيجة لما سبق الحديث عنه في المحور الأول من هذا البحث، أولهما: حول تشخيص الدرس العقدي المعاصر بإيجابياته وسلبياته، وثانيهما: حول الحلول العلاجية التي ينبغي أن يقترحها الدرس العقدي المعاصر لمواجهة هذه الموجة الإلحادية العارمة. وسأصوغ الحديث عنهما على شكل سؤالين في مطلبين:

المطلب الأول– هل الدرس العقدي المعاصر يمتلك الوسائل الكافية لمواجهة الإلحاد؟

يواجه الدرس العقدي في عصرنا تحديات كثيرة مختلفة الأشكال ومتنوعة المجالات، وهي تطرح إشكالات علمية عويصة لا مهرب من الإجابة عنها وإيجاد الحلول الناجعة لها...

إن دراسة العقيدة الإسلامية انطلاقا من مبدأ التسليم وعدم الالتفات إلى ما استجد من علوم وتطور في المناهج، وما أحدث من شبهات تتطلب الجواب عنها بإقناع وموضوعية، مع إعطاء البعض الحق المطلق لنفسه في أن يؤيد توجها على آخر، أو يقدم أطروحة ضد أخرى، لمجرد أن ذاك التوجه أو تلك الأطروحة توافق توجه هذا الباحث أوتنتسب إلى مذهبه أو جماعته بغض النظر عن صحة دليلها في الواقع. — إن ذلك - يعتبر من أعوص المشكلات التي فتحت الباب أمام كثرة الخلافات بين المسلمين بل بين أهل السنة والجماعة، وأحدثت تباينا كبيرا في الآراء، مما سهل الطريق للفكر المخالف للدين الإسلامي أن يعشعش ويبيض ويفترخ في أوساط الشباب المسلم، إذ يدعي المروجون للأفكار المخالفة أن هؤلاء المنتسبين لأهل السنة والجماعة مختلفون فيما بينهم حول العقيدة، فكل طرف منهم ينسب نفسه إلى دائرة أهل السنة والجماعة ويخرج غيره، كما أنهم يكفرون بعضهم بعضا. إذن فمَن الطرف المصيب منهم ومن المخطيء ما دام الوضع على هذه الشاكلة؟ كما قال القائل:

وكل يدَّعي وصلاً بليلى ** وليلى لا تقر لهم بذاكا.

كثيرة هي القضايا التي تنسب إلى العقيدة وتدرس ضمنها وعند البحث والتمحيص يظهر أنها ألصقت بها دون أن تكون لها صلة وثيقة بها، كما أن هناك جزئيات متعددة تولدت من النقاش العقيم والجدال الذي في غالبه الأعم ليس وراءه إلا تشتيت وحدة الأمة وإحداث الشقاق بين أهل السنة، وللأسف الشديد فهناك من يدخل أمورا في أصول

العقيدة ويدرسها على أنها من المسلمات، وما هي في أبعد الأمر إلا من لوازمها ومتعلقاتها، أو قد تكون من مباحث الفقه ولا علاقة لها بالدرس العقدي أصلا، وعديدة هي المباحث التي أحدث حولها نزاع وخلاف أدى إلى تكفير الطرف المخالف، ومن ذلك مبحث: "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، ومبحث: "البدعة"، و"التوسل"، و"زيارة القبور"، والولاء والبراء"، و"التشبه بالكفار"، وغير ذلك...، كما يبالغ البعض فيدرج الكثير من الجزئيات والفرعيات ضمن الأصول والكليات. إن الخلاف في هذه الأمور يسع الجميع لو تحلينا بالموضوعية العلمية والوسطية الفكرية، لكن التعصب والاستبداد بالرأي يجني الويلات.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه المذاهب العقدية السنية ما هي إلا مناهج لتوجيه النصوص العقدية من كتاب أو سنة، وفق قواعد التنزيه وضوابط التأويل، وحمل المتشابه منها على المحكم، مع الإيمان بكل ما أخبر به الله تعالى في كتابه أو صح على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، إما على جهة تفويض معناه لله عز وجل مع صرف المحتمل للتشبيه عن ظاهره وهو ما يسمى التأويل الإجمالي، أو على جهة صرفه كليا عما يحتمله من التشبيه بتأويله وفق قوانين العربية وقواعد البلاغة وما يقتضيه السياق؛ وهو التأويل التفصيلي.

وإذا تقرر هذا فإنه ينبغي الآن على العقلاء والمهتمين بالبحث العقدي في عصرنا أن يشكلوا جدارا متماسكا من أجل مواجهة كل الشبهات التي تلقي بظلالها على العقيدة الإسلامية، وأن يتجاوزوا الكثير من الخلافات التي لم تعد تجدي نفعا وليس وراءها إلا الشقاق والنزاع، كما يطلب من المتخصصين والمشتغلين بالبحث العلمي الجاد الإسهام في تطوير المناهج الدراسية بشكل عام وما يرتبط بالمجال العقدي بشكل خاص، من أجل إكساب الدرس العقدي القدرة على مواجهة التحديات المعاصرة، والتصدي لكل الأفكار الهدامة والموجات الإلحادية العارمة.

إننا إذا ألقينا نظرة فاحصة على المكتبة العقدية المعاصرة وعلى الوسائل التي يتسلح بها الدرس العقدي المعاصر في مواجهة الفكر الإلحادي، يمكن القول – إن هذه الوسائل والمؤلفات– تبقى محدودة نوعا ما، وتحتاج إلى الكثير من العمل وتضافر المجهودات، فغالب ما كتب في هذا الجانب يبقى عبارة عن محاولات شخصية قليلة، وقد وجدت من الباحثين المتخصصين من يشاطر هذا الرأي ويؤكد على ضعف البضاعة في مكتبتنا العقدية المعاصرة.

يقول محمد عمارة في تقديمه لكتاب عمرو شريف (وهم الإلحاد) "تطلعت إلى ساحة الفكر الإسلامي — وخاصة في مصر– بلد الأزهر الشريف، فكانت الصدمة عندما لم أجد أحدا بين علماء المسلمين قد أولى هذا الحقل، حقل الرد على الماديين ومحاورة الملحدين. ما يستحق من التخصص والاهتمام، لكن ولحسن الحظ وجدت هذا العالم الفاضل، أستاذ الطب الدكتور عمرو شريف، الذي استوعب تاريخ الإلحاد ودعاوى فلاسفته قديما وحديثا في الغرب والشرق، والذي أسهم بجهود فكرية مشكورة ومتميزة وممتازة في هذا الميدان، والذي قام بمحاورة لعدد من مشاهير الملحدين العرب..."[18].

ومن المحاولات الجادة والجهود المشكورة في تطوير الدرس العقدي وجعله مناسبا للإجابة عن الإشكالات الحالية، ومعالجة الشبهات الجديدة، ما كتبه عدد من العلماء والباحثين في حقل الدراسات الفكرية والعقدية، وقد كتب الدكتور

سلطان بن عبد الرحمن العميري مقالا بعنوان: "**المادة النقدية للفكرة الإلحادية**" وسأقتصر على ذكر بعضٍ من تلك المؤلفات:

1. كتاب: "قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن" لنديم الجسر، وهو عبارة عن حوار مطول بين شاب متشكك في وجود الله وبين عالم شرعي، فهو شبيه بالعمل الروائي في انسياب مشاهده وأفكاره. ويعد هذا الكتاب من أقوى الكتب التي عرضت الأدلة العقلية والفلسفية على وجود الله، وكشفت عن مواطن الخلل المنهجي في الفكرة الإلحادي.

2. كتاب: "الفيزياء ووجود الله" لجعفر شيخ إدريس. يتميز هذا الكتاب بالتركيز على أكثر أسئلة الإلحاد العلمية إلحاحا على الشباب المسلم. وقدم المؤلف مادة جيدة قام من خلالها بتوصيف الإلحاد في العصر الحديث ورصد أسباب انتشاره.

3. كتاب: "الإسلام يتحدى" لوحيد الدين خان. تقوم فكرة الكتاب على إثبات أحقية الدين أمام الفكر المادي الجديد عن طريق الاعتماد على نفس الأدلة التي يسلكها الفكر الإلحادي في نقد الدين وهي الاستدلال بالنظريات العلمية الحديثة. ويعد هذا الكتاب من أهم الكتب التي تؤسس الاقتناع العلمي لدى الشباب المسلم بصحة العقائد الدينية الكبرى.

4. كتاب: "براهين وأدلة إيمانية" لعبد الرحمن حسن حبنكة. الكتاب يتحدث عن طريقة القرآن في تأسيس الإيمان بوجود الله. وفيه استعرض للأدلة العقلية والفلسفية الدالة على وجوده تعالى. وكذلك استعراض لبعض المستندات التي يرتكز عليها الإلحاد.

5. كتاب: "الله يتجلى في عصر العلم" لمجموعة من العلماء الأمريكيين، ترجمة: محمد جمال الدين الفندي. الكتاب عبارة عن ثلاثين مقالا، كتب كل مقال عالم متخصص في العلوم الحديثة، فبعضهم عالم في الفيزياء وبعضهم في علم الفلك وبعضهم في الأحياء، وقد وجه إلى كل منهم السؤال التالي: هل تعتقد في وجود الله؟ وكيف دلتك دراستك وبحوثك عليه؟ وهو بحق كتاب ثري ومليء بالأفكار القوية ضد الإلحاد(19).

المطلب الثاني– ما هي أنجع الطرق العلاجية لمواجهة ظاهرة الإلحاد؟

سأحاول في هذا المطلب اقتراح بعض السبل العلاجية من أجل تطوير الدرس العقدي المعاصر حتى يكون في مستوى التطلعات، لمواجهة التحديات المعاصرة، والإجابة على الإشكالات الآنية، ومعالجة النوازل العقدية الحالية، مقتصرا على مقترحين اثنين؛ مخافة التطويل ومجاوزة الحد المسموح به.

المقترح الأول– دراسة العقيدة الإسلامية انطلاقا من القرآن الكريم مع تبسيط معانيها وتقريب مفاهمها:

لا أقصد هنا تسطيح الخطاب العقدي وجعله خارجا عن السياق المعاصر وعدم مواكبته لما استجد من علوم ومناهج حديثة، كما لا أعني ظاهر تلك المقولة التي تقول: إن العقيدة الصحيحة هي: "ما ثبت في الكتاب والسنة بفهم سلف

الأمة"، فهذه كلمة حق قد يراد بها باطل، لعدم تنزيلها تنزيلا صحيحا، وفهمها فهما محكما عند الكثير من المتسرعين غير المتثبتين، إذ لا أحد ينكر ما أخبر به الله تعالى في كتابه أو صح على لسان نبيه، لكن بفهم من؟ حتى وإن قلنا بفهم السلف لكن سلف من؟ وبخاصة أننا نرى الكثير يستبد بانتسابه للسلف ويعطي الحق المطلق لنفسه بإخراج كل من يخالف توجهه من دائرة الانتساب للسنة والسف، وجعل مذهبه أو جماعته أو رأيه وحده الموافق لما كانوا عليه، ونسبة غيره للبدعة والضلالة!؟ مع العلم أنه يتشبث بآراء علماء جاءوا في عصور متأخرة ويلغي آراء غيرهم ممن يخالفون منهجه وتوجهه وإن كانوا الأسبق والأولى بالانتساب للسلف، وينكر علم الكلام جملة وتفصيلا، ويرد المذهبية دون كلام علمي أو منهج منضبط، كل ذلك على غير وعي منه بخطورة هذا الأمر، وأنه سيؤدي لا محالة إلى أن تصبح الدنيا كلها مذاهب، وستفتح الباب أمام كل من هب ودب ليتكلم في العلم الشرعي وينظِّر في الفكر والعقيدة دون علم!؟

إذا تقرر هذا فإن الذي أعنيه بالانطلاق في دراسة العقيدة الإسلامية من القرآن الكريم، هو اعتماد تلك الأصول الكلية للعقيدة الصافية الصحيحة التي تحدث عنها القرآن الكريم وأقام عليها البراهين القطعية والدلائل العقلية، فالقرآن الكريم تكلم عن العقيدة الإيمانية في صورة شمولية تضمنت أركانها الثلاثة: (**التوحيد، الرسالة، البعث والجزاء**)، دون تعقيدات ركيكة، ولا تلك التقسيمات الزائدة، فالمتأمل في القرآن الكريم يجده يتحدث عن العقيدة في صورة متماسكة رائعة، وبأسلوب جذاب سهل، ويقررها بأدلة موافقة للفطرة والعقل والشرع والحس والكون، كل ذلك بطريق إقناعي محكم ومنهج علمي رصين.

فالله تعالى الذي خلق الكون هو الذي أنزل القرآن، فمن غير الممكن أن يجعل ما في آيات الكون تخالف آية القرآن أو العكس. ثم خلق الإنسان ليعيش في هذا الكون، ويتفكر في آياته ومكنوناته العظيمة، ونواميسه العجيبة، من أجل أن يحقق الغاية التي خلق من أجلها، وهي: العبادة والاستخلاف؛ مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: 56). وقوله الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: 30). وقوله أيضا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأنعام: 165).

وإنعاما منه سبحانه وتعالى وتكريما لابن آدم سخر له كل ما في هذا الكون بعلوه وسفليه، بسمائه وأرضه، بهضابه وسهوله، ببره وبحره. كل ذلك مخلوق بعناية خارجة عن طوق البشر واستطاعته، مع حكمة بالغة وإتقان عجيب لا يجد الذي يجول بنظره ويتأمل بفكره – في هذا الكون- أي تفاوت أو خلل فيه، فلا كوكب الشمس قريب جدا من الأرض فتحترق من شدة الحرارة، ولا هي بعيدة بعدا يؤدي إلى جمودها، لا الماء الحلو طغى على ماء البحر المالح ولا العكس حاصل، لا الشمس مدركة للقمر، ولا الليل سابق النهار، بل كل ذلك بمقدار معلوم لا يختل، قال الله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱللَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: 40). فسبحانه من حكيم خبير، ومن عليم

قدير، قائل في كتابه الكريم: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (النمل: 88). كل ذلك من أجل خدمة هذا المخلوق العظيم الذي خلقه في أحسن تقويم، وركبه أعظم تركيب، وجعله على أجمل صورة وأحسن شكل، كما يشير عز وجل إلى ذلك بقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية: 13).

يقول الإمام الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآية: "﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من شمس وقمر ونجوم ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من دابة وشجر وجبل وجماد وسفن لمنافعكم ومصالحكم ﴿جَمِيعًا مِنْهُ﴾، يقول تعالى ذكره: جميع ما ذكرت لكم أيها الناس من هذه النعم نِعَم عليكم من الله أنعم بها عليكم وفضل منه تفضل به عليكم وجميعها منه ومن نعمه، فلا تجعلوا له في شرككم له شريكا بل أفردوه بالشكر والعبادة وأخلصوا له الألوهية فإنه لا إله لكم سواه"[20].

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحج: 65). قال الرازي رحمه الله في تفسير هذه الآية: أي ذلل لكم ما فيها فلا أصلب من الحجر ولا أحد من الحديد ولا أكثر هيبة من النار، وقد سخرها لكم وسخر الحيوانات أيضاً حتى ينتفع بها من حيث الأكل والركوب والحمل عليها والانتفاع بالنظر إليها[21].

إن المتأمل في الكون المنظور والكتاب المسطور والقرآن المقروء يجد الدلائل البينة الواضحة والبراهين القطعية على وجود الله ووحدانيته وعظيم قدرته، فبالإضافة إلى ما فطر الله عليه الإنسان من فطرة نقية، وأودع فيه من عقل سليم وحواس قويمة، قد بعث الأنبياء والرسل وأيدهم بالمعجزات الباهرة وأنزل عليهم الكتب والرسائل السماوية، لهداية القلوب وإرشاد العقول إلى سبيل الرشاد، كي لا يضل العقل عن مهيع الصواب وطريق الحق، وحتى تنتفي كل حجج المنكرين وأوهام المعرضين عن منهج الله ودينه الحنيف، قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء 165). وصدق القائل: (وفي كل شيء له آية ** تدل على أنه الواحد).

إن القرآن الكريم تحدث عن العقيدة الإسلامية بصورة سهلة مبسطة بعيدة كل البعد عن التعقيدات الركيكة والتأويلات البعيدة، مع الإلمام بجميع جوانبها الأساسية وأصولها الرئيسة، وقواعدها الكلية، فقد جاءت الآيات القرآنية الكريمة للحديث عن ذلك في صورة متماسكة وشكل محكم، وأسلوب جذاب، يغري الأسماع ويذهب لب العقول ويجلب القلوب، فالقرآن الكريم وهو يقرر أصول الإيمان بالله ورسله وبالبعث والجزاء، جاء ببراهين توافق الفطرة والعقل السليمين، ويدل عليها الحس والشرع الصحيحين. ومن أجل إلقاء نظرة إجمالية على ذلك أورد بعضا من تلك الدلائل:

1. دليل الفطرة: يقصد بالفطرة هنا ما جُبِل عليه هذا الإنسان من معرفته بربه؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الروم: 30، 31). وقد اختلفت كلمة العلماء في تفسير هذه الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها، وقد فسرها ابن عبد البر رحمه الله بـ: أنها السلامةُ والاستقامة الأصلية. وفي ذلك يقول: أما اختلاف العلماء في الفطرة المذكورة في هذا الحديث؛ فقالت جماعة من أهل الفقه والنظر: أريدَ بالفطرة المذكورة في هذا الحديث الخلقةُ التي خُلق عليها المولود في المعرفة بربه، فكأنه قال: كل مولود يولد على خلقة يعرف بها ربه إذا بلغ مبلغ المعرفة، يريد خلقة مخالفة لخلقة البهائم التي لا تصل بخلقتها إلى معرفة ذلك...، إلى أن قال: هذا القول أصح ما قيل في معنى الفطرة التي يولد الناس عليها والله أعلم، وذلك أن الفطرةَ السلامةُ والاستقامة، بدليل حديث عياض بن حمار عن النبي عليه السلام حاكيا عن ربه عز وجل: (إني خلقت عبادي حنفاء) يعني على استقامة وسلامة. والحنيف في كلام العرب المستقيم السا لم"[22].

ويقول الطاهر ابن عاشور رحمه الله: (الفطرة في كل أحوال الإنسان) "والفطرة: ما فُطِر— أي خُلق— عليه الإنسان ظاهراً وباطناً، أي جسدًا وعقلاً. فسَيْرُ الإنسان على رجليه فطرة جسدية، ومحاولة مشيه على اليدين خلافُ الفطرة. وعمل الإنسان بيديه فطرة جسدية، ومحاولة عمله برجليه خلافُ الفطرة. واستنتاج المسبَّبات من أسبابها والنتائجِ من مقدماتها فطرةٌ عقلية. ومحاولةُ استنتاج الشيء من غير سببه — المسمى في علم الجدل بفساد الوضع — خلافُ الفطرة العقلية. والجزم بأن ما نشاهده من الأشياء هو حقائق ثابتة في نفس الأمر فطرة عقلية، وإنكار السفسطائية ثبوتَها خلافُ الفطرة العقلية"[23].

2. دلالة العقل على وجود الله عز وجل: وذلك لأن هذه المخلوقات سابقها ولاحقها لابد لها من خالق أوجدها على هذا النظام البديع؛ ولهذا ذكر الله هذا الدليل العقلي والبرهان القطعي فقال عز وجل: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ (الطور: 35-37). ولما سمع جُبير بنُ مُطعِم رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآيات وكان مشركًا قال: "كاد قلبي أن يطير وذلك أولُ ما وقر الإيمان في قلبي"[24].

لقد جاء النبي صلى الله عليه وسلم، بدين جديد يخالف ما كانت عليه العرب في الجزيرة العربية من عبادة الأصنام والأوثان من جهة. ومن جهة أخرى يخالف دين أهل الكتاب من يهود ونصارى. بالإضافة إلى مخالفته للديانات الوضعية الموجودة آنذاك كديانة: الهند والفرس واليونان وغير ذلك... مما كان من الطبيعي أن يلقى تلك المعارضة الشديدة من قبل هؤلاء الذين لم يرضهم هذا الدين الجديد.

ولما كانت أول مراحل الدعوة في مكة المكرمة وهي دار شرك وأهلها عباد أصنام، يشركون مع الله غيره كان لزاما أن نجد مرحلة الدعوة في مكة أغلبها يدور حول إثبات الوحدانية لله ونفي الشرك عنه تعالى، بأسلوب التحدي والإعجاز، والبراهين القاطعة التي لا يستطيع المعاند أن يقارعها.

ومن جانب آخر لما كانوا أيضا ينكرون البعث والجزاء، وأنه لا وجود لحياة غير هذه، أثبت القرآن الكريم ذلك بأدلة لا تترك مجالا للشك والتردد، فكلما طرحوا إشكالا أو سألوا سؤالا، إلا وجاء القرآن الكريم يبين الإشكال، ويجيب عن السؤال، ويقارعهم بالمحسوس والمعقول، وضربا للأمثال التي لا يستطيع تكذيبها حتى الغبي الجاهل الذي بلغ الغاية في البلادة لقوة وضوحها بأسلوب مفصل وواضح، تطمئن إليه النفس، ويهتدي به العقل إلى طريق الصواب.

3. أما دلالة الحِسّ على وجود الله – عز وجل – فمن وجهين:

أ. أننا نسمع ونشاهد من إجابة الداعين وغوث المكروبين ما يدل دلالة قاطعة على وجود الله عز وجل، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (الأنبياء: 76). وغير ذلك..

ب. أن آيات الأنبياء التي تُسمَّى المعجزات دليل قاطع على وجود الله عز وجل؛ لأنها أمور خارجة عن نطاق البشر يجريها الله تأييدًا لرسله ونصرًا لهم[(25)].

4. أما دلالة الشرع على وجود الله عز وجل؛ فلأن الله أرسل الرسل وأنزل الكتب السماوية تنطق بذلك. وقد أمد القرآن الكريم النبي صلى الله عليه وسلم بأتمّ الحجج والبراهين، وسجل أقاويل الكفار وردود الوحي عليها؛ حتى تكون حجة الله بالغة باهرة إلى يوم الدين، وحتى لا تكون للناس على الله حجة بعد ختم النبوة؛ لأن القرآن صوتها الممدود ونداؤها الموصول، وفيه أكمل حديث عن التوحيد تقريرًا وإثباتًا، وردًّا على المشركين والملحدين، وإبطالًا للشرك وكل دروب الوثنية والانحراف عن التوحيد.

المقترح الثاني– تطوير الدرس العقدي المعاصر كي يساير الواقع، ويعالج قضايا العصر، ويحل إشكالاته:

لا شك أنه أصبح من الضروري الذي لا يقبل الانتظار؛ القيام بتطوير الدرس العقدي المعاصر وتجديد مناهجه وتحديث خطابه إن على مستوى التأليف أو التدريس، حتى يكون في مستوى التطلعات المنشودة، وهذا يتطلب تظافر جهود جميع المهتمين والمتخصصين سواء تعلق الأمر بالشرعيين أو بالمتخصصين في مجالات العلوم الأخرى، فهناك الكثير من الفروع العلمية المحدثة فلسفيا وتجريبيا، مما يقتضي مناقشة الكثير من المعطيات والإجابة عما أحدثته من إشكاليات.

وغير خاف على الباحث المتمكن في مجال العلوم الفكرية والعقدية أن الدعوى إلى تجديد الدرس العقدي ليست بالأمر الجديد ولا المحدث، ولا المستنكر أيضا! فهناك دعوات عديدة بل ومحاولات جادة قام بها علماء وباحثون كبار قديما وحديثا، جاءت لتبعث الروح في الدرس العقدي وتجعله ملائما للواقع ومعالجا لما استجد من قضايا وأحدث من إشكالات.

إن الدارس لتاريخ الفكر الإسلامي خصوصا المرتبط بالمذاهب والفرق؛ يجد أنه في كل عصر من عصوره وزمن من أزمنته إلا ووجد فيه أئمة أعلام وباحثون أفذاذ خلد التاريخ ذكرهم ومجد أسماءهم، نافحوا عن العقيدة الإسلامية في وجه كل التيارات الهدامة والأفكار المنحرفة، وقاموا بمحاولات رائدة في تجديد الفكر الكلامي لازالت آثارها الإيجابية سائدة إلى الآن.

وبالنبش في الأحداث والبحث في غياهب التاريخ لابد وأن نثني الثناء الجميل ونشكر الشكر الجزيل تلك المحاولات الإصلاحية الرائدة، والمجهودات العلمية العظيمة والمباركة التي سجلها لنا التاريخ على صفحاته بأحرف من ذهبٍ، للإمامين الجليلين أبي الحسن الأشعري وأبي منصور الماتريدي رحمهما الله، فكلاهما عاش في زمن واحد وهو نهاية القرن الثالث وبداية الرابع الهجريين، فهما وإن اختلفا في المكان إذ كان أحدهما: في البصرة موطن المعتزلة أصحاب العقل وأهل العدل والتوحيد! الذين عاثوا آنذاك في الساحة الفكرية فسادا، والآخر: كان بعيدا نوعا ما في سمرقند، غير أنهما اتحدا في المقصد والتوجه، فكلٌّ منهما رام الدفاع عن العقيدة الإسلامية والرجوع بها إلى منبعها الصافي، ودفع الشبهات عنها وتأييدها بالبراهين القطعية والأدلة العقلية، ومناقشة قضاياها وحل إشكالياتها بمنهج الوسطية والاعتدال، (دون غلو في استعمال العقل ولا إنكار للنقل، بل بالتوازن بينهما).

ويحدثنا الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله تعالى عن هذه المحاولة التجديدية الرائدة لأبي الحسن الأشعري رحمه الله في معرض كلامه عن رد الأشعري على المعتزلة قائلا: "وقد نال لذلك منزلة عظيمة وصار له أتباع كثيرون، ولقي من الحكام تأييدا ونصرة، فتعقب خصومه من المعتزلة وأهل الأهواء والكفار، وبث أنصاره في الأقاليم يحاربون خصوم الجماعة ومخالفيها، ولقبه أكثر علماء عصره بإمام أهل السنة والجماعة.. كما يصف المذهب بعد الأشعري بقوله: كان لمذهب الأشعري أنصار كثيرون كما بينا، واعتبر في العراق وما والاه من جهة الغرب مذهب أهل السنة والجماعة كما نوهنا، ولقد جاء رجال ممتازون قووا الآراء التي انتهى إليها الأشعري..."[26].

وهذه لم تكن هي المحاولة الأولى ولا الأخيرة، بل قد سبقتها مجهودات لأئمة كبار من أمثال الإمام مالك والإمام أحمد بن حنبل والمحاسبي وغيرهم كثير...، كما أعقبتها جهود مباركة تممت هذه العملية التجديدية كي تواكب تطورات العصر وتعالج مستجداته.

ولا ننسى هنا أن ننوه بالعمل الجبار الذي بدله حجة الإسلام أبي حامد الغزالي رحمه الله في الدفاع عن العقائد الإيمانية في وجه كل التيارات الفلسفية والباطنية، وكتابه: "فضائح الباطنية" يعتبر بحق كتاب العصر، كما أن كتابه: "فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة" جاء للرد على الموجات التكفيرية من جهة، ومن جهة أخرى لرفض أي انحلال وزندقة، إن هذا الكتاب ينبغي أن يخصص كمادة دراسية في الجامعات والمعاهد والمراكز العلمية الشرعية الحالية. وأما كتابه: "إلجام العوام عن علم الكلام" فجاء في سياق تجديد الخطاب العقدي والتوازن بين مستوياته، فالناس أصناف والعقول درجات فالعامي الذي لم يتسلح بدراسة العقيدة وممارسة علوم الفلسفة والمنطق، لا ينبغي له خوض لجج هذا البحر المتلاطم الأمواج حفاظا على معتقده وعدم اللج به في أغلال الإشكالات وتقييده بسلاسل الشبهات.

وأما كتابه العظيم والذي اشتهر به الموسوم بـ: "إحياء علوم الدين" فهو خلاصة ما توصل إليه واطمأنت إليه نفسه، وهو محاولة تجديدية جادة لربط ما هو علمي بما هو عملي، وربط العقيدة بالعبادة والأخلاق، أراد أن يؤكد على أن هذا الدين الحنيف جاء متوازنا ومتماسكا في عقيدته وشريعة وقيمه وأخلاقه، لا يمكن الفصل بينها بوجه من الوجوه. وخلاصة القول فيه أن حجة الإسلام الغزالي رحمه الله كان تطلعه من هذا الكتاب أن يوازن بين "فقه القلوب وفقه الجوارح والأركان".

وثمت محاولات تجديدية كثيرة فهاهو ابن تيمية رحمه الله يدون موسوعة رائعة عنونها بـ: "درء التعارض بين العقل والنقل= موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول"، وما أحوجنا إلى موسوعات رائدات على منوالها، والعصر الحديث في أمس الحاجة إلى موسوعة موسومة بـ: "**منع التناقض بين الدين والعلم التجريبي = موافقة الوحي الإلهي للعلم التجريبي**".

ولما أشرقت شمس العصر الحديث، بعد ما مرت قرون من الركود الفكري، واستيقظت الأمة العربية والإسلامية على الغزو الغربي، حدث رجة فكرية أيقظت همم الباحثين فركزت أغلب التيارات الإصلاحية في دعواها إلى الإصلاح والتجديد؛ على الإصلاح الديني والعقدي مع التأكيد على ضرورة إصلاح مناهج التعليم، لأنهم رأوا أن الخلل يكمن في ذلك، وأنه لا إصلاح ينجح ما لم يكن الإصلاح الديني والعقدي وإصلاح مناهج التعليم في الصدارة.

فجاءت دعوات لكبار رجال الإصلاح تنادي بهذا الإصلاح وترسم خريطته، وإذا كان المقام لا يسمح بالإطالة فإني سأكتفي بالإشارة إلى بعض الجهود في هذا المجال؛ ومنها ما قام به علامة تونس وشيخ الزيتونة ومفتي المالكية فيها الشيخ العالم الموسوعي الطاهر ابن عاشر رحمه الله، فوضع كتابين جليلين لهذا الغرض، وهما: "أليس الصبح بقريب"، و"أصول النظام الاجتماعي في الإسلام"، وقصد من خلالهما وضع الأصبوع على الداء وإعطاء الدواء، تصويرا للمشكلة وإيجاد الحل.

فقد بدأ الإمام حديثة عن الجوانب الإصلاحية لممارسة الاعتقاد، بكون الإنسان بفطرته يبحث عن أصل تكوينه، والوسائل كلها بين يديه لكي يصل إلى الاطمئنان النفسي. وقد وضع الشارع الحكيم جملة من الوسائل التي تُعين الإنسان على اكتشاف خالقه سبحانه وتعالى، ومن تلك الوسائل، إرسال الرسل عليهم السلام، وإنزال الكتب وإقامة الحجة بأيديهم مؤيدين بمعجزات خارقة للعادة. وقد كان التوحيد دين الناس منذ آدم ثم طرأت على الناس من بعدهم حوادث جعلت الناس يتركون عبادة الإله الواحد، والبحث عن آلهة من صنع أيديهم وغيرها. وقد أرجع فساد الاعتقاد إلى ثلاثة أحوال: الإشراك، والتعطيل، والخطأ في الصفات، ولشرح نظرياته الإصلاحية ينبغي الرجوع إلى كتابه: "أصول النظام الإجتماعي في الإسلام"[27].

ومن المحاولات العلمية الجليلة التي جاءت لتطعيم الدرس العقدي بالمباحث الكلامية والفلسفية والعلمية كي يجيب عن الإشكالات ويكون في مستوى التطلعات، والتي ينبغي العناية بها والسير على منوالها ومواصلة تطويرها؛ ما كتبه بعض كبار العلماء والباحثين في الحقل العلمي خصوصا الشرعي والفكري، ومن تلك الكتابات:

1. كتاب: "**موقف العقل والعلم والعالم مِن رب العالمين وعباده المرسلين**"، للعلامة الكبير مصطفى صبري مفتي الدولة العثمانية (توفي: 1954م) وهو كتاب مهم للغاية ينبغي لطالب العلم الشرعي بصفة عامة والباحث في المجال العقدي بصفة خاصة، الاهتمام به وقراءته.

وأما مضمون الكتاب: فقد شمل زبدة أفكار المؤلف وآرائه السياسية والعلمية. فهو كتاب غني بالمباحث الفكرية الفلسفية والكلامية الدقيقة والتي تناولت الجوانب النظرية والعلمية. ويهدف الكتاب كما هو واضح من عنوانه إلى الدفاع عن عقائد الإسلام وأصوله الفكرية بأسلوب علمي رصين يدفع الشبه ويقيم الحجج. كشف مصطفى صبري في كتابه عن العديد من المؤامرات التي حيكت ضد الإسلام على صعيدين متوازيين, وذلك بالمواجهة الحربية التي تعرض لها من خلال هجمات الغربيين والتحديات الفكرية العقيدية التي تنشر فكر الإلحاد و التحلل الأخلاقي. وبين صبري أهم عماد في الفكر الإسلامي وهو الدليل العقلي وقارن بين المنهج الإسلامي في المعرفة والمناهج التي اتبعها المثقفون والفلاسفة الغربيون. فبرهن بأن الدليل العقلي مقدم على الدليل التجريبي, وتعمق في مناقشة الأدلة على وجود الله ورد شبه النافين من فلاسفة الغرب.

2. ومنها: كتاب: "**كبرى اليقينيات الكونية وجود الخالق ووظيفة المخلوق**"، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله، وهو يعتبر من أفضل ما ألف في العقيدة الأشعرية لدى المتأخرين، وينبغي لطلبة العلم قراءته لأنه سيغنيه عن الكثير من الكتب في هذا المجال.

وهذه نبذة عن الكتاب: فقد اشتمل على مقدمة وأربعة أقسام؛ فأما المقدمة: فبين فيها المنهج العلمي للبحث عن الحقيقة عند علماء الإسلام وغيرهم. كما تحدث عن حاجة الإنسان إلى العقيدة الصحيحة عن الكون والحياة، ووضح موقع العقيدة في مجموع البئة الإسلامية.

وأما الأقسام فجاءت على هذا المنوال: القسم الأول- الإلهيات: تحدث فيه عن صفات الله عز وجل وفصلها تفصيلا تاما مقسما لها وفق المنهج السني الأشعري المعروف، مع بيان ما يترتب عليها من الحقائق مثل: تنزيه الله تعالى عن الأضداد والنقائص- نفي العلة الغائية عن أفعال الله تعالى-كون الله تعالى لا يجب عليه شيء- مصير الإرادة الإنسانية أمام إرادة الله – الإيمان القضاء والقدر- رؤية الله تعالى. وجاء القسم الثاني للحديث عن النبوات: بين فيه المؤلف؛ تحقيق معنى النبوة والرسالة، الحديث عن ظاهرة الوحي- الحديث عن الإنبياء عليهم الصلاة والسلام وبيان صفاتهم والمعجزات التي أيدهم الله بها – توضيح أن النبوة لا تكتسب. وشمل القسم الثالث مجال الكونيات وهو مبحث جديد: فتحدث فيه عن الإنسان وبين فيه أصل خلقته، ثم وضح مصير نظرية النشوء والارتقاء أمام هذه الحقيقة – تحدث عن عالم الملائكة والجان – بين قانون السببية في الكون. وأما القسم الرابع فتضمن الكلام عن الغيبيات: واشتمل على بيان المقصود بالغيبيات – تحدث عن حقائق تتعلق بالموت- بيان أشراط الساعة –يوم القيام وأحداثه- الردة وأسبابها. ثم الخاتمة جاء فيها بيان: أنه لا حاكمية إلا لله وأن وظيفة الإنسان هو تنفيذ حكم الله في الأرض – ووضح أن الحديث عن هذا الأمر هو ثمرة الحقائق السابقة.

3. ومن الجهود التجديدية المعاصرة ما دعا إليه الدكتور حسن الشافعي حفظه الله من إحداث فرع جديد لعلم الكلام، ألا وهو مبحث "القواعد الاعتقادية" وقد جاءت هذه الدعوى إلى إحداث هذا الفرع من خلال درس حسني ألقاه بين يدي جلالة الملك محمد السادس نصره الله بعنوان: "القواعد الشرعية الاعتقادية"[(28)]. كما نشر مقالا في "مجلة المسلم المعاصر" شرح فيه نظريته هاته[(29)].

4. ومن تلك المحاولات العلمية الجيدة ما يقوم به د. سعيد فودة المتخصص في علم الكلام والفلسفة، وله كتابات ومقالات ومحاضرات مسجلة لمناقشة قضايا الإلحاد، ومنها على سبيل المثال كتابه الرائع: "تفنيد الأسس النظرية والعلمية للإلحاد" وهو نقد لكتابين: عادل ضاهر: "تأملات في مفهوم الفعل الإلهي"، و"نقد الصحوة الإسلامية". ويناقش الكتاب بقسميه قضيتان رئيستان يطرحهما. عادل ضاهر. الأولى؛ هي نفي وجود الإله بناء على استحالة حصول فعل من فاعل إلا بشرط كون الفاعل جسما. والثانية؛ رفض إمكانية صدور أحكام عملية من الإله القديم الذي لا يتغير. مع مناقشة بعض الدعاوى.

إن المجهودات من أجل تجديد علم الكلام وتطعيم قضاياه بمباحث علمية جديدة موجودة ورائدة، غير أنها تبقى قليلة نوعا ما مما يتطلب تضافر جهود أكثر من طرف كل المهتمين؛ سواء في الميدان الشرعي والفكري أو في فروع علمية أخرى.

كما أنه أصبح من الواجب إحداث تكوينات علمية ومراكز متخصصة في جامعاتنا ومعاهدنا التعليمية، يتم فيها الجمع بينما يخص الجانب الشرعي والفكري، وبينما هو فلسفي أو علم تجربي.

ومن المباحث التي ينبغي إضافتها والاهتمام بها للمتخصصين في الدرس العقدي "علم الفيزياء" فله ارتباط وثيق بمبحث الطبيعيات الذي يعد من أبرز المباحث التي يتطلب تجديدها وتطوير الباحث حولها في المجال الإلهي.

إننا الآن في حاجة إلى الانتقال من علم الكلام إلى علوم الكلام؛ إذ لا مانع من ذلك! فنحن لا نتحدث هنا عن العقيدة أي ما يعتقده المؤمن ويسلم به، بل نتكلم عن علم العقيدة، وهو ما يرتبط بتأييد العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والبراهين القطعية، والعلوم الحديثة والتجريبية وسيلة لذلك. فإذا كانت توجد عندنا في التخصصات الشرعية "علوم للقرآن"، و"علوم للحديث"، و"أصول للفقه وقواعده ومقاصده"، فلما ذا لا تكون عندنا علوم للكلام وأصول الدين؟ وقد رأينا دعوات ومحاولات من طرف متخصصين لإحداث فروع جديدة لعلم الكلام وعلى سبيل المثال: فمحمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله خالف التقسيم التقليدي الثلاثي العقدي في المذهب الأشعري؛ "الإلهيات والنبوات والغيبيات" بإضافة قسم رابع سماه: "الكونيات"، كما دعا حسن الشافعي إلى إحداث علم وسمه بـ: "علم القواعد الشرعية الاعتقادية"، وهناك بعض الباحثين ممن دعا إلى إضافة مبحث جديد وهو: "مبحث الإنسانيات" أو ما يعرف بأنسنة علم الكلام، والمقصود دراسة الجانب العقدي المرتبط بالإنسان إذ هو المخاطب في هذه العملية وهو المرسل إليه. وقد كتب أحد الباحثين المعاصرين في هذا المجال مقالا أو كتيبا نشره "مركز نماء"، وهو محمد جمال عبد النور عنونه بـ: "هل نحن بحاجة إلى أنسنة علم الكلام؟"[(30)].

وإني أدعوا إلى إحداث فرع جديد آخر لعلم الكلام يختص بمواجهة الشبهات الحادثة حول العقيدة الإسلامية، وحل الإشكالات المعاصرة والإجابة عن "النوازل العقدية المعاصرة"، ويمكن اقتراح عنوان لهذا الفرع بـ: "رد شبهات الماديين والإلحاديين حول العقيدة الإسلامية"، أو ما شابه ذلك.

وقد أُعجبت بالمحاولة التجديدية الرائعة التي قام بها الشيخ عبد العظيم الزرقاني رحمه الله لمباحث علوم القرآن في كتاب الماتع: "مناهل العرفان في علوم القرآن"، فلم يقتصر على المباحث التقليدية لهذا العلم، بل انتهج منهجا خاصا بتقسيم كتابه إلى قسمين: أحدهما: لدراسة علوم القرآن. والثاني: لتفنيد كل الشبهات التي حامت حولها وردها ردا علميا محكما، حبذا لو استغلت هذه المحاولة في علم الكلام، فهي محاولة رائدة بامتياز والمتأمل في الكتاب يلمس ذلك. والله أعلم وهو ولي التوفيق والسداد.

خاتمة

سأحاول في نهاية هذا البحث أن أبرز أهم ما توصلت إليه من خلاصات واستنتاجات، أعرضها فيما يلي:

- يرجع مفهوم الإلحاد إلى كل فكر يتعلق بإنكار وجود خالق هذا الكون سبحانه وتعالى، سواء أكان عند المتقدمين من الدهرية، أو عند من جاء بعدهم من الشيوعيين والماركسيين، فيشمل كل من لم يؤمن بالله تعالى.
- لا بديل اليوم للباحثين في مجال العقيدة والفكر عن الاجتهاد في معرفة أسباب الإلحاد بشكل مفصل ودقيق، مع القيام بدراستها دراسة علمية موضوعية تمكنهم من الاطلاع على دواعي انتشارها وإيجاد حلول علاجية لها.
- لقد أصبح من الضروري الذي لا يقبل الانتظار؛ القيام بتطوير الدرس العقدي المعاصر وتجديد مناهجه وتحديث خطابه على جميع المستويات تدريسا وتأليفا تعلما وتعليما، مما يتطلب تضافر جهود جميع المهتمين والمتخصصين في مجالات العلوم المختلفة.
- لا شك أن هناك جهودا ومحاولات علمية جليلة جاءت لتطعيم الدرس العقدي بالمباحث الكلامية والفلسفية والعلمية ليواكب العصر ويجيب عن إشكالاته، غير أنها تبقى في حاجة إلى مزيد عناية وجهد كبيرين لتعطي أكلها.
- لقد أصبح من الواجب إحداث تكوينات علمية ومراكز متخصصة في جامعاتنا ومعاهدنا التعليمية، يتم فيها الجمع بينما يخص الجانب الشرعي والفكري، وبينما هو فلسفي أو علم تجريبي.
- ومن المباحث التي ينبغي إضافتها والاهتمام بها للمتخصصين في الدرس العقدي "علم الفيزياء" فله ارتباط وثيق بمبحث الطبيعيات الذي يعد من أبرز المباحث التي يتطلب تجديدها وتطوير الباحث حولها في المجال الإلهي.

- إنني أقترح إحداث فرع جديد لعلم الكلام يختص بمواجهة الشبهات الحادثة حول العقيدة الإسلامية، وحل الإشكالات المعاصرة والإجابة عن "النوازل العقدية المعاصرة"، يمكن تسميته: "رد شبهات الماديين والإلحاديين حول العقيدة الإسلامية".

التهميش:

---

(1) ابن منظور، محمد بن مكرم أبو الفضل، لسان العرب، (بيروت: دار صادر، 1414هـ)، ط3. ج: 3، ص: 389. بتصرف.

(2) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي. (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، 1426هـ- 2005م)، ط8. ج: 1، ص: 317.

(3) عواجي، علي بن غالب، المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها، (جدة: المكتبة العصرية الذهبية، 1427هـ-2006م)، ط1، ج: 2، ص: 1003.

(4) ابن عاشور، محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (تونس، دار سحنون للنشر والتوزيع، 1984م)، ط1، ج: 9، ص: 189.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج: 9، ص: 189.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج: 9، ص: 189.

(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج: 24، ص: 303.

(8) المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة، مصر؛ إعداد المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ص: 280.

(9) عمرو شريف، وهم الإلحاد، تقديم محمد عمارة، (مصر: مجلة الأزهر، 1435هـ). ط2. ص: 17.

(10) الحديث هنا – كما يقول محمد عمارة- عن الشك المنهجي، وليس عن الشك العبثي، الذي يناقض الفطرة ويشكك في البديهيات. ينظر: عمرو شريف، وهم الإلحاد، ص 5.

(11) عمرو شريف، وهم الإلحاد، ص 5.

(12) الجاحظ، أبو عثمان بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، (مصر، مطبعة مصطفى البابي، 1384هـ/1965م)، ط2، ص 6.

(13) عمرو شريف، وهم الإلحاد، ص 5.

(14) رفاعة الطهطاوي، الأعمال الكاملة، دراسة وتحقيق محمد عمارة، (عمان-الأردن: دار الشروق للنشر والتوزيع، 2010م)، ط1. ص: 5.

(15) رفاعة الطهطاوي، المرجع السابق نفسه، ص: 5، بتصرف..

(16) الجندي أنور، في مواجهة أخطر التحديات في هذا العصر: تحرير العقيدة، مجلة دعوة الحق وزارة الأوقاف المغربية، ربيع الثاني 1392هـ-ماي 1972م، السنة الخامسة عشرة، المجلد 3، عدد 145. ص: 26.

(17) عمرو شريف، وهم الإلحاد، ص: 11-12.

(18) عمرو شريف، وهم الإلحاد، ص: 14.

(19) العجيري، عبد الله بن صالح، ملشيات الإلحاد؛ مدخل لفهم الإلحاد الجديد، (بريطانيا: منشورات مركز تكوين للدراسة والأبحاث، 1435هـ/2014م، ط2. ص: 219.

(20) الطبري، محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، بيروت، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1415هـ/1994م) ط1، ج: 13، ص: 143-144.

(21) الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي، مفاتيح الغيب، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1425هـ/2004م)، ط2. ج: 12، ص: 55.

(22) ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، تحقيق محمد عبد الكبير البكري، (المغرب: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1387هـ/1967م)، ط2. ج: 18، 68-71.

(23) ابن عاشور، محمد الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، (تونس: الشركة التونسية للتوزيع؛ د. خ)، ط3. ص: 36.

(24) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير الناصر، (دمشق-بيروت: دار ابن كثير، 1423هـ/2002م) ط1. كتاب تفسير القرآن سورة الطور، بابٌ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الفجر، ج: 6، 140، رقم (4854).

(25) القحطاني، بيان عقيدة أهل السنة والجماعة ولزوم اتباعها في ضوء الكتاب والسُّنَّة، (الرياض: مطبعة سفير د.خ) (بلا، ط). ص: 12.

(26) أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، اعتنى به وخرج أحاديثه: عبد الحليم إبراهيم عبد الحليم، (القاهرة: دار الفكر العربي، 1430ه/2009م)، (د. ط). ص: 177.

(27) ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ص: 46.

(28) الشافعي، حسن محمود عبد اللطيف الشافعي، القواعد الشرعية الاعتقادية، درسن حسني، (المغرب: موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،2013/5/07م)، الرابط: http://www.habous.gov.ma

(29) الشافعي، حسن محمود عبد اللطيف الشافعي، نحو علم للقواعد الاعتقادية الشرعية، مجلة المسلم المعاصر، 2003م، المجلد 27، عدد 107، جمعية المسلم المعاصر. ص: 25.

(30) محمد جمال عبد النور، هل نحن بحاجة إلى أنْسنة علم الكلام؟ مركز نماء، (2016م). الرابط: http://nama-center.com/Articles/Details/40733

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن عاشور، محمد الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، (تونس؛ الشركة التونسية للتوزيع؛ د. خ)، ط3.
2. ابن عاشور، محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (تونس، دار سحنون للنشر والتوزيع، 1984م)، ط1.
3. ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، تحقيق محمد عبد الكبير البكري، (المغرب: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1387 ه/1967م)، ط2.
4. ابن منظور، محمد بن مكرم أبو الفضل، لسان العرب، (بيروت: دار صادر، 1414ه)، ط3.
5. أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، اعتنى به وخرج أحاديثه: عبد الحليم إبراهيم عبد الحليم، (القاهرة: دار الفكر العربي، 1430ه/2009م)، (د. ط).
6. البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير الناصر، (دمشق-بيروت: دار ابن كثير، 1423ه/2002م) ط1.
7. الجاحظ، أبو عثمان بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، (مصر، مطبعة مصطفى البابي، 1384ه/1965م)، ط2.
8. الجندي أنوار، في مواجهة أخطر التحديات في هذا العصر: تحرير العقيدة، مجلة دعوة الحق وزارة الأوقاف المغربية، ربيع الثاني 1392ه-ماي 1972م، السنة الخامسة عشرة، المجلد 3، عدد 145.
9. الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي، مفاتيح الغيب، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1425ه/2004م)، ط2.
10. رفاعة الطهطاوي، الأعمال الكاملة، دراسة وتحقيق محمد عمارة، (عمان-الأردن: دار الشروق للنشر والتوزيع، 2010م)، ط1.

11.الشافعي، حسن محمود عبد اللطيف، القواعد الشرعية الاعتقادية، درسن حسني، (المغرب: موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،2013/5/07م)، الرابط: http://www.habous.gov.ma
12.الشافعي، حسن محمود عبد اللطيف الشافعي، نحو علم للقواعد الاعتقادية الشرعية، مجلة المسلم المعاصر، 2003م، المجلد 27، عدد 107، جمعية المسلم المعاصر.
13.الطبري، محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، بيروت، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1415هـ/1994م) ط1.
14.العجيري، عبد الله بن صالح، ملشيات الإلحاد؛ مدخل لفهم الإلحاد الجديد، (بريطانيا: منشورات مركز تكوين للدراسة والأبحاث، 1435هـ/2014م، ط2.
15.عمرو شريف، وهم الإلحاد، تقديم محمد عمارة، (مصر: مجلة الأزهر، 1435هـ). ط2.
16.عواجي، علي بن غالب، المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها، (جدة: المكتبة العصرية الذهبية، 1427هـ-2006م)، ط1.
17.الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي. (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، 1426هـ- 2005م)، ط8.
18.القحطاني، بيان عقيدة أهل السنة والجماعة ولزوم اتباعها في ضوء الكتاب والسُّنَّة، (الرياض: مطبعة سفير د.خ (بلا، ط).
19.المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة، مصر؛ إعداد المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
20.محمد جمال عبد النور، هل نحن بحاجة إلى أنْسنة علم الكلام؟ مركز نماء، (2016م) الرابط: http://nama-center.com/